# القرون الوسطى وصناعة الإسلاموفوبيا*

# Middle Ages and The Making of Islamophobia

https://aif-doi.org/AJHSS/108003

أ.م.د. محمد سالم حسين الشغيبي (باحث رئيس)[1]
أ.د. كمال مولود جحيش[2]

(1)أستاذ مشارك - كلية الشريعة وأصول الدين
قسم الدراسات الإسلامية – جامعة الملك خالد
https://orcid.org/0000-0003-2451-464X
(2)أستاذ دكتور- كلية الشريعة وأصول الدين
قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة – جامعة الملك خالد
https://orcid.org/0000-0002-0747-2313

## الملخص

**تعد القرون الوسطى أخصب الفترات وأكثرها تأثيرا في صناعة الصور النمطية التي علقت بالإسلام ونبيه وأتباعه في العالم المسيحي ( Christendom) الغربي، وهذه الصور النمطية المتراكمة هي التي ساهمت في ظهور ما صار يعرف بالإسلاموفوبيا في وقتنا الحالي.**

**تهدف هذه الورقة إلى تتبع المؤثرات التاريخية القروسطية التي تشكلت على أساسها هذه الصور وتم تجميعها على الوجه الذي أوجد في النهاية قلقا وخوفا بلغ حد الرهاب، يرجع هذا إلى قناعة مفادها أن هذا العداء الشديد للإسلام ولكل ما يمت بصلة إليه ليس ناتجا عن أحداث 2001/09/11م كما يروج له، بل إنه يمتد إلى قرون طويلة سابقة، وليس لهذه الأحداث دور سوى أنها أعادت إحياء ما تم نسيانه إعلاميا وشعبيا لفترة قصيرة، أما أكاديميا فقد كان حاضرا على الدوام، وخاصة عبر الاستشراق الذي يعتبر امتدادا لتاريخ المعرفة الغربية الوسيطة للإسلام.**

**في هذا السياق يرى صاحبا هذه الورقة أن إبطال الصورة المشوهة التي ألصقت بالإسلام والمسلمين يمر بلا ريب عبر العمل على تفكيك المقولات التي أسست وقعدت لها، وهي مقولات في الوقت الذي أسست فيه للكراهية الزائدة، أسست في الوقت ذاته لمركزية دينية مسيحية دخلت لاحقا في عملية تشكيل ممنهج لمركزية أورو -أمريكية (العطاس، 2021، صفحة 98) كانت لها نتائج خطيرة على مستوى العلاقات الإنسانية، وكل ذلك يسهم في محاولة الاقتراب من الظاهرة وفهمها على وجه يجعلها أكثر وضوحا، ليتيسر بعد ذلك تقديم الرؤى التي تمكن من التقليل من مخاطر الاشتباك، ولم لا الانتقال إلى**

هذا البحث تم دعمه من قبل عمادة البحث بجامعة الملك خالد – المملكة العربية السعودية برقم: GRP/ 351/43

ISSN : 2410-1818

**التعاون في دائرة الاختلاف، وهذا بالتأكيد يحتاج إلى شجاعة في تقليب أوراق التاريخ وقراءتها قراءة مستوعبة وناقدة.**

**الكلمات المفتاحية: الإسلاموفوبيا، القرون الوسطى، المسيحية، الإسلام، الغرب.**

## Abstract

The Middle Ages are the most fertile and most influential period in making powerful and negative stereotypes or representations that were attached to Islam, its Prophet, and its followers in the Western Christian world (Christendom). These accumulated Western stereotypes contributed to the emergence of a phenomenon which has become known as Islamophobia in our contemporary time. This paper aims to trace the medieval historical impacts on which these representations were formed and compiled in the manner that eventually created anxiety and fear that reached the point of phobia. This is due to the conviction that this intense hostility towards Islam and everything related to it is not a result of the events of 09/11/ 2001, but it extends to the previous long centuries, and these events have no role other than that they revived what was forgotten in the media and public mind for a short period, but academically it has been always present, especially through Orientalism, which is considered as an extension of the history of medieval European knowledge of Islam. In this context, the two authors of this paper believe that the nullification of the distorted negative representations that has been attached to Islam and Muslims undoubtedly goes through working to deconstruct the medieval texts that established and supported them. These texts, while establishing excessive hatred, did establish at the same time, a Christian religious centralism, which later entered a process of systematic formation of European and then Western centralism, which have had serious consequences on the level of human relations. This approach will help in understanding the phenomenon and make it much clearer, in order to interduce ideas that enable the reduction of the risks of conflict, and then move to collaboration in the circle of differences. This certainly requires courage in flipping through the sheets of history and reading them comprehensively and critically.

**Keywords:** Islamophobia, Middle Ages, Christianity, Islam, West.

ISSN : 2410-1818

**مقدمة:**

الإسلاموفوبيا أو الخوف من الإسلام بكل ما يحمله من كراهية وتحامل، قضية أسالت الحبر الكثير خاصة في العقدين الأخيرين، وقد تم ربط الفكرة بوقائع وأحداث ظرفية متداخلة ومركبة، أغلبها كان ذا طابع سياسي واجتماعي مرتبط بالعنصرية والتمييز على أساس العرق، وما يلحقها من تمييز على أساس الدين، وقد تم سوقها على وجه يجعلها فكرة جديدة ارتبطت بتلك الوقائع، ومن ثم فإن تراجعها أو زوالها مرتبط بزوال أسبابها.

إننا نحسب أن الإسلاموفوبيا ليست مجرد صناعة إعلامية معاصرة كما قد يبدو، بل إننا نزعم أنها فكرة تمت صناعتها منذ أمد بعيد، وتم غرسها في وعي الإنسان الأوربي منذ القرون الوسطى المتأخرة على الأقل، وإن كانت في تقديرنا تمتد إلى ما قبل ذلك بكثير، حيث إنها صارت تظهر من وقت إلى آخر كلما أتيحت لها الفرصة ليتم توظيفها في أي مواجهة أو صراع مهما اختلفت طبيعته، انطلاقا من هذا فإن هذه الورقة تنطلق من فرضية مفادها أن فكرة الإسلاموفوبيا ليست فكرة جديدة، وهي فكرة وإن كانت لها جذور ممتدة إلى البدايات الأولى لانتشار الإسلام، فإن صناعة الصور النمطية للإسلام والمسلمين تمت خلال العصور الوسطى المتأخرة، ففي هذه الفترة تم جمع كل الأفكار السلبية، وحتى الأفكار الغريبة لتكون المادة التي على أساسها تم تشكيل هذه الصور، هذه الحقبة في تقديرنا تحتاج إلى قراءة جديدة، وإلى إعادة فحص، ومن شأن ذلك أن يكشف عن تلك الصور الرمزية الكامنة في وعي الإنسان الأورو- أمريكي المسكون بعقدة التفوق، مسيحيا كان أم علمانيا.

**إشكالية البحث.**

وفي تقديرنا فإن استئناف القول في ظاهرة الإسلاموفوبيا وبحث جذورها بصورة عامة، وجذورها اللاهوتية المسيحية بصورة خاصة أمر له أهميته التي لا تنكر، فمن شأن ذلك أن يكشف التوظيف الإمبريالي للظاهرة بوصفها منتجا إيديولوجيا يتم الاستعانة به وقت الحاجة، ومن ثم العمل على إزاحة هذا الغطاء بغية الإسهام في تقليل مساحة المواجهة بين الأديان وبين الحضارات.

بناء على ذلك نرى من المناسب طرح جملة من الأسئلة نراها ضرورية لتوجيه هذه الدراسة، ويمكن إجمالها في الآتي: ماهي العوامل التي أدت إلى تشكيل هذه الصورة المخيفة عن الإسلام والمسلمين؟ ما مكونات هذه الصورة؟ وما أثر ذلك على رسم خطوط العلاقة بين الغرب والإسلام في الوقت الحالي؟

ISSN : 2410-1818

**الدراسات السابقة.**

ولا يخفى أن هذا الموضوع نال حظا كبيرا من البحث والدرس في الشرق وفي الغرب على السواء، من المسلمين ومن غيرهم، وقد بلغ الاهتمام بهذا الموضوع حدا يصعب تتبع ورصد ما يصدر بشأنه، سواء من جهة ما تخرجه المطابع من دراسات أو ما تتناوله مؤتمرات تعقد لهذا الغرض، أو من جهة ما يتم تداوله في النطاق الإعلامي بمفهومه الواسع، حيث يتم تناوله في أبعاده المختلفة، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، وحتى حضاريا أيضا، وبعد فحص ما وصلت إليه أيدينا من الدراسات يمكننا تمييز لونين من الدراسات:

1- دراسات لم تغص في بحث الجذور التاريخية الدينية اللاهوتية للإسلاموفوبيا، واكتفت بمناقشة القضية في مستوياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتداعياتها على مستوى حقوق الإنسان، وحقوق المهاجرين، وبحث ما يمثله الخوف من الإسلام من هواجس أمنية لدى الحكومات الغربية، وهذه الدراسات في مجملها بحوث اجتماعية إحصائية، مثال ذلك دراسة ( Uenal, F. et al (2020). *The Nature of Islamophobia: A Test of a Tripartite View in Five Countries. Personality and Social Psychology Bulletin.* doi:10.1177/0146167220922643 . وهذا اللون من الدراسات لا يعنينا في بحثنا هذا على الرغم من فائدتها العلمية الكبيرة.

2- دراسات تناولت جذور الإسلاموفوبيا، لكنها تفاوتت من جهة ما تقف عنده، فبعضها يقف بها عند حدود تاريخية عرفت بتفشي الهجرة، وبعضها حاول أن يحفر في التاريخ ويتتبع الظاهرة في أصولها الدينية اللاهوتية. وهذا اللون من الدراسات هو ما يعنينا، ومن الدراسات التي يمكننا الوقوف عندها:

- دراسة وليد الزيدي: جذور الإسلاموفوبيا في الغرب ومآلاتها المستقبلية، فرنسا أنموذجا ( الزيدي، 2016. الصفحات: 15- 37)، تناول الباحث في دراسته جذور الإسلاموفوبيا في الغرب وتتبع بداياتها مع هجرة المسلمين لا سيما العرب منهم إلى الغرب عامة وفرنسا بشكل خاص، وذلك بالتطرق إلى العلاقة بين أوضاع المهاجرين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهذه الدراسة كما هو بين قاصرة عن الوفاء بالمطلوب من جهة إرجاع جذور الظاهرة إلى زمن هجرة المسلمين والعرب إلى الغرب، وهو تحديد زمني لا يبلغ الجذور الحقيقية في تقديرنا.
- دراسة الباحثين: الطيب معاش وامحمد عبة:

(معاش وعبة. الإسلاموفوبيا من الجذور والأسباب إلى المظاهر وأساليب المواجهة.2023. الصفحات: 159- 189 (https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/132/11/1/212893)، حاول

ISSN : 2410-1818

الباحثان في هذه الدراسة تناول جذور الإسلاموفوبيا وأسبابها، وقد كان هذا التناول تاريخيا تمثل في إيراد جملة من الوقائع التي طبعت العلاقات بين المسلمين وبين المسيحيين، من زمن النبوة مرورا بالفتوحات إلى الحروب الصليبية، ومنها إلى فترة الفتح العثماني لأجزاء واسعة من أوروبا وصولا إلى وقتنا الحالي، وهذا التناول في تقديرنا لا يقدم الصورة الحقيقية لجذور الظاهرة، لاكتفائه بجرد وقائع التاريخ وحسب.

**دراسة الباحث مصطفى أليجي MUSTAFA ALICI:**

(أليجي. الخوف الافتراضي الذي لا نهاية له في العالم الغربي: الإسلاموفوبيا. 2021. الصفحات: 405-366 https://dergipark.org.tr/en/download/article-file/2228897)، تناول الباحث في هذه الدراسة مسألة الخوف من الإسلام التي تنتاب العالم الغربي، وبعد دراسة للمفهوم من حيث تاريخه وأبعاده أشار إلى الأصول اللاهوتية الدينية التي تقف وراء جملة التوصيفات التي لحقت الإسلام والمسلمين ونبيهم، ملفتا النظر إلى التوسع الكبير الذي عرفه القاموس المفاهيمي الكنسي الذي يخص المسلمين، ليشير الباحث بعدها إلى الظروف التي أحاطت بعملية إحياء مثل هذه الصور القروسطية على يد الاستشراق، وما تلاها من توظيف لاحق لهذا المخزون في إدارة العلاقة مع المسلمين عامة بمن فيهم المهاجرون إلى بلاد الغرب، وهذه الدراسة وإن كان لها فضل التنبيه على كثير من القضايا ذات الصلة بما نرمي إليه، إلا أنها تناولت الجذور بشكل مختصر، وهو ما نأمل أن نعطيه اهتماما أكبر.

**منهج البحث.**

من أجل تحقيق أهداف الدراسة والإجابة عن جملة الأسئلة المطروحة رأينا من المناسب الأخذ بأكثر من منهج، وأولها المنهج التاريخي، وذلك بالرجوع إلى النصوص التي كتبت في الفترة موضوع الدراسة، مع الاستئناس بالوقائع التاريخية التي تصدق تلك النصوص، تتبع آثارها وامتداداتها التاريخية اللاحقة. لا يفي المنهج التاريخي وحده بالغرض في مثل هذه الدراسات، لذا من المناسب الاستعانة بالمنهج التحليلي، وذلك من خلال تحليل هذه النصوص وإرجاعها إلى سياقاتها التي أنتجتها، مع بحث العلاقات بينها بوصفها معبرة عن ظاهرة قطعت شوطا في مسار تشكلها الطويل.

ISSN : 2410-1818

**عناصر البحث:**

**مقدمة البحث.**

**تمهيد: مفهوم الإسلاموفوبيا؛ حداثة المصطلح وتجذر المدلول**

**المبحث الأول: طبيعة العلاقات الإسلامية المسيحية في القرون الوسطى المتأخرة.**

**المبحث الثاني: الإسلام والمسلمون في عيون المسيحيين في القرون الوسطى.**

**المبحث الثالث: نتائج التمركز الديني المسيحي.**

**خاتمة وتوصيات.**

**تمهيد: مفهوم الإسلاموفوبيا؛ حداثة المصطلح وتجذر المدلول.**

**الإسلاموفوبيا في اللغة:** الإسلاموفوبيا (Islamophobia)كلمة غير عربية، وهي مركبة من كلمتين: إسلام، وفوبيا، وفوبيا في أصلها اللغوي لا تعني مجرد الخوف، بل تتجاوزه إلى حد الرهاب الذي هو في الأصل مرض نفسي، وهي تعني الخوف المرضي من الإسلام أو رهاب الإسلام، والرهاب هنا مرض يلازم صاحبه ولا ينفك عنه، ومنه فإن الخوف يحضر كلما ذكر الإسلام، وهذا لا يكون إلا بحضور مجموعة من الأوصاف ترد بطريق التداعي لتولد هذا الخوف، نعني بهذا أن هناك كتلة من التوصيفات يستدعي بعضها بعضا لتنتج هذا الرهاب، قد يكون هذا المفهوم حديثا وتم نحته في سياق الأبحاث النفسية، لكن هذه الكتلة من الأوصاف التي أضحت مخيفة إلى هذا الحد ليست جديدة بكل تأكيد، إذ تمت صياغتها خلال فترات طويلة، خاصة إبان العصور الوسطى المتأخرة، وهو ما يجعلنا نميل إلى اعتبار المصطلح حديثا في مقابل تجذر مدلوله في التاريخ.

لم تجعل الأدبيات التي اشتهرت في العصور الوسطى المسيحية الإنسان الأوربي يخاف من الإسلام حد الرهاب وحسب، بل إن تلك الأدبيات صورت الإسلام تصويرا مخيفا قبل ذلك، حتى أضحى الحديث عن الإسلام يثير الخوف، وصار الإسلام يعني الخوف ذاته، وهو ما جعل الخلاص من هذا الخوف المرضي هدفا يصعب الوصول إليه. تم توريث هذا الخوف عبر العصور، وكلما مر زمن ازداد هذا الخوف استحكاما، حتى أصبح مسيجا بسياج إيديولوجي يصعب خرقه، سياج يلتبس فيه الدين مع السياسة.

**المبحث الأول: طبيعة العلاقات الإسلامية المسيحية في القرون الوسطى المتأخرة.**

**تمهيد:** يمثل التوجيه القرآني بالنسبة للمسلمين في إدارة علاقاتهم بالمسيحيين دستورا لا مجال لتجاوزه بأي وجه، تبعا لذلك حاول المسلمون منذ فجر الرسالة تمثل التعاليم القرآنية في مجمل معاملاتهم مع المسيحيين، فالقرآن الكريم يدعو إلى احترام اختياراتهم، واحترام دينهم، في الوقت ذاته يدعو

ISSN : 2410-1818

المسلمين إلى المحافظة على مبدأ التمييز بين العقيدتين، عقيدة التوحيد الإسلامية، وعقيدة التثليث النصرانية المسيحية، كان هذا المبدأ شاملا بشقيه، مبدأ الاعتراف مع التمايز حتى في البلاد التي امتد إليها نفوذ المسلمين لاحقا، وما يجدر التذكير به هنا هو أن صورة النصارى المسيحيين التي كانت حاضرة في أذهان المسلمين، تم تشكيلها من خلال آيات القرآن الكريم من جهة، ومن خلال الاحتكاك بالإمبراطورية الرومانية من جهة أخرى، فضلا عن التعامل المباشر مع المسيحيين العرب الذين كانوا يساكنون المسلمين بل ويتولون المناصب العليا في مؤسسة الخلافة، لكن هذه الصورة أضيفت لها أبعاد أخرى مع بداية الحروب الصليبية، وأضحى التوجس من كل ما هو مسيحي حاضرا في كل موقف، وهذا بالنظر إلى العدوانية غير المبررة – على الأقل بالنسبة للمسلمين- التي يبديها المسيحيون تجاه المسلمين، وهي العدوانية التي ترجمتها الوحشية التي صاحبت دخولهم أنطاكيا(1098م) والقدس(1099م).

في الجانب المقابل لم تكن الصورة التي ارتسمت في مخيلة المسيحيين واضحة تماما، قد يكون ذلك راجعا بالدرجة الأولى إلى الجغرافيا على الأغلب -دون الغفلة عن الاعتبارات الأخرى-، وبالرغم من الصدام الذي حدث في مؤتة، وفي اليرموك بالخصوص، وبالرغم من وجود المسيحيين المخالطين للمسلمين، إلا أن الرأي العام الذي كان سائدا في العالم المسيحي لم يكن يرى في الدعوة الإسلامية الناشئة أي تهديد جدي له، لقد كانت النظرة السائدة ترى أن الدعوة الناشئة ليست سوى هرطقة سرعان ما يقل تأثيرها وينطفئ وهجها، شأنها شأن حركات التمرد داخل المسيحية، وهي الفكرة التي روج لها يوحنا الدمشقي فيما بعد.

غير أن هذه العلاقات التي عرفت حروبا وصدامات كثيرة في القرون الوسطى المتقدمة، عرفت في المقابل جدلا دينيا واسعا، لكنها لم تكن قد وصلت حد صناعة الصور المشوهة عن الإسلام والمسلمين على الوجه الذي صار عليه الأمر خلال القرون الوسطى المتأخرة، ونعني بذلك الحقبة التي ابتدأت مع مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، ذلك أن هناك عوامل مستجدة لم تكن متوفرة من قبل، وفي هذا المقام رأينا التركيز على ثلاثة عوامل نراها أكثر أهمية من غيرهما، وهي: الحروب الصليبية، حروب الاسترداد وظهور الأتراك العثمانيين.

**المطلب الأول: الحروب الصليبية.**

تمثل الحروب الصليبية واحدة من أشد الصفحات سوادا في تاريخ العلاقات المسيحية الإسلامية، ولا أحد من الجانبين ينكر أن تأثيرها ما يزال ممتدا إلى وقتنا هذا، فهذه الحروب كما كان اندلاعها بسبب الصور السلبية التي رسمت لدى كل طرف عن الآخر، كانت السبب المباشر في تقديرنا على الأقل في زيادة صورة المسلمين قتامة في أعين المسيحيين، هذا على الرغم من كون هذه

ISSN : 2410-1818

الحروب مثلت فرصة لتعديل الصورة القديمة التي كانت سائدة قبل الحرب، وهذا بالنظر إلى المواقف الإنسانية التي وقفها المسلمون تجاه الصليبيين، وهي مواقف أثارت إعجاب الصليبيين أنفسهم، لكن هذه الفرصة تم إهدارها بفعل التعصب الذي كان سيد الموقف آنذاك.

في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي كان كل شيء يشير إلى نهاية فترة من السلم كانت قصيرة أصلا، وإلى قرب مواجهة عنيفة بين المسلمين والمسيحيين، فقبل هذه الفترة وعلى الرغم من استيلاء المسلمين على مناطق شاسعة كانت خاضعة للإمبراطورية الرومانية التي كانت راعية المسيحية إلا أن كتابات المؤرخين المسيحيين التي تناولت تلك الفترة كانت تتسم بشيء غير قليل من الحياد (ماستناك، 2009، ص. 149)، وغالبا ما كان ينظر إلى تلك الهزائم التي لحقت الأباطرة على أنها عقاب إلهي على المعاصي التي اقترفوها، أما من الجهة الدينية فإن الساراسان لم يضيقوا على المسيحيين في عباداتهم(ماستناك، 2009، ص. 150)، من الجهة المقابلة لم ينظر المسيحيون الغربيون- خلال هذه الفترة - لا إلى المسلمين ولا إلى ديانتهم كتهديد خاص للديانة المسيحية (ماستناك، 2009، ص148)، غير أن مشاعر العداء زادت بالتدريج حتى بلغت ذروتها في القرن الحادي عشر الميلادي، وكان انعقاد مؤتمر كليرمونت سنة 1095م كافيا لتندلع شرارة هذه الحرب الطاحنة، حيث استجاب قطاع واسع من المسيحيين لندائها الذي أطلقه البابا أوربانوس الثاني من خلال خطبته التحريضية التي صارت تعرف بخطبة الدم، كان الهدف المعلن هو استعادة ما خسرته الكنيسة في فترات سابقة، لقد رأى الصليبيون أن هناك أوامر دينية تلزمهم بحمل الصليب من أجل استرداد الأرض المقدسة- الأرض التي عاش فيها المسيح وعلم تلاميذه- من أيدي الكفار المسلمين من أجل تسهيل وتعجيل عودة المسيح(Goddard,2000, p.84 )، ولم تكن فكرة نصرة المسيح هي المحرك الوحيد لهذه الحرب، بل إن مجرد الإعلان عنها كان كافيا لينخرط فيها أصحاب الأغراض المختلفة، لكن ما كان يجمع بينها هو القضاء على(Saraceni) الساراسان (المسلمين)كما اعتادوا على تسميتهم، لقد كان سير الحرب يشي بأن فظائع ستقع، وأن الخوف قد غير موقعه بالفعل، قام الصليبيون بمذابح في حق المسلمين واليهود في المدن التي استولوا عليها، بما فيها القدس، لكن الملفت أن أطماع الصليبيين لم تقف عند الاستيلاء على الأرض المقدسة وحسب، بل امتدت لتشمل سائر الأقاليم المطلة على البحر المتوسط من جهة الجنوب والشرق.

كان بطرس المبجل واحدا من الشخصيات البارزة التي كان لها دور كبير في إدارة الحرب الصليبية، في بداياتها الأولى كان الإسلام يمثل بالنسبة إليه ذروة الهرطقات المسيحية، والعقيدة الإسلامية خطأ الأخطاء الأول، وحثالة جميع الهرطقات التي نمت فيها معا جميع فلول العقيدة الشيطانية والتي ظهرت منذ مستهل مجيء المخلص، أما انتشار الإسلام فوصفه بالسعار المحمدي الذي أفسد آسيا وشمال إفريقيا (ماستناك، 2009، ص. 258-259)، والحال أن حكم بطرس

ISSN : 2410-1818

المبجل النهائي على المسلمين قد هجر تصويره المشفق لهم على أنهم ضحايا لاحتيال محمد. فبما أنهم لم يصغوا لإملاءات العقل ورفضوا اعتناق الدين المسيحي الحق فإنهم ليسوا فقط الشعب البربري بل إنهم أيضا أكثر الأجناس شرا. ولابد من محاربتهم ومحاربة أعداء صليب المسيح هؤلاء إنما تمثل خوض حرب ضد الشيطان أمير هذا العالم(ماستناك، 2009، ص 258)، كان بطرس يبدي استغرابه من عدم الرد على هرطقات المسلمين، ومشجعا على محاربتهم بالكلمات، غير أنه لم يكتف بالكلمات التي تمثل بالنسبة إليه سيفا معنويا، لينتقل إلى الحرب بالسيف المادي، لذلك كان أحد الذين أشرفوا على التحضير للحملة الصليبية الثانية( ماستناك، 2009، ص. 262)، فالحرب الصليبية بالنسبة إليه كانت عملا روحيا ساميا، والمشاركة فيها كانت تعبيرا عن السعي إلى التطهر الروحي(ماستناك، 2009، ص. 263).

لم تكن الحرب الصليبية لتمضي بالقوة المادية وحدها، بل إنها أخذت منحى آخر يمكن تسميته بالحرب الصليبية العلمية، تلك التي تهدف إلى نصرة المسيحية بالعلم وتحويل منجزاته إلى تقنية.

لقد استمرت هذه الحرب على مدى قرون، ولم تخف وطأتها إلا بعد أن أنهك الصليبيون، ولم يعد في مقدورهم الاستمرار في الحرب الخاسرة مع المسلمين، وقد لاقوا على أيديهم هزائم منكرة، لم يكن هذا وحسب بل إن ظهور العثمانيين في الشرق مع مطلع القرن الرابع عشر ساهم في ذلك أيضا، لتشهد العلاقات بين المسلمين وبين المسيحيين فصلا جديدا كان له هو الآخر نصيبه في تشكيل صورة مشوهة عن المسلمين.

هذا الاستعراض الموجز للحروب الصليبية يشي بأن هناك اعتقادا كان سائدا مفاده أن هذه الحرب لن تكون كغيرها من الحروب، وقد كان هذا الاعتقاد في محله بحكم المدة الطويلة التي استغرقتها، فضلا عن أن فحص ما كان يرافقها مما كان يطلق على المسلمين من أوصاف من قبل الكنيسة، وما كانت تتوجه به إلى المسيحيين لم يكن يقصد منه التعبئة والحشد ضد المسلمين وحسب، إنما كان الغرض منه أكبر وأبعد، فلم يكن المسلمون مجرد خصوم عاديين في نظر الكنيسة، إنما كانوا خصوما يتصفون بالبربرية، وهذا فوق كونهم وثنيين يهددون العالم المسيحي الذي تعمره الكنيسة المبشرة بالسلام، لقد كان الخيال المسيحي مسكونا بالعداء للبرابرة الوثنيين (ماستناك، 2009، ص. 148) منذ القدم، "لقد عملت الحروب الصليبية... على خلق تمثيلات للمسلمين وإدامتها بوصفهم أشرارا وفاسدي الأخلاق، فاسقين وبرابرة، جهلة وأغبياء، قذرين ومن نوع أدنى، متوحشين وبشعين، مهووسين وعنيفين" (ساردار، 2012، ص.23). مع مطلع القرن الثالث

ISSN : 2410-1818

عشر ورغم النهضة العلمية التي دشنتها الدولة الكارولينجية2 قبل ذلك بمدة تزيد على ثلاثة قرون، لم تكن الكنيسة قد كونت صورة متكاملة قريبة من الواقع عن الإسلام وعن المسلمين، ومع وجود بعض اللاهوتيين الأذكياء الذين ألمحوا إلى سمو أخلاق المسلمين، إلا أن هذا لم يكن له أثر يذكر لقناعتهم أن المغول سيحلون المشكلة مع الإسلام بسحق المسلمين فترتاح أوربا من شرهم (سوذرن، 2006، ص. 19)، بل فوق ذلك ظنوا أن المغول مسيحيون يريدون القضاء على الإسلام من منطلق عقائدي كاثوليكي، ولذلك لم يعد هناك ما يدعو إلى المزيد من التعرف على الإسلام السائر للزوال(سوذرن، 2006، ص18)، وقد أثبتت الوقائع التاريخية اللاحقة أن الكنيسة لم تكن في واقع الأمر معنية بتعميق معرفتها بالإسلام، ولا بتقديم الإسلام في صورة أوضح لجمهورها، بل على العكس من ذلك، كانت ترى ردم الفجوة بين الإسلام وبين جمهور المسيحيين مهددا لإيمانهم، وفوق ذلك من شأنه أن يحد من الاندفاع نحو الهدف الأساسي وهو القضاء على المسلمين عن طريق الدعوة إلى حرب صليبية جديدة (سوذرن، 2006، ص. 23).

اكتملت عناصر الصورة التي أرادتها الكنيسة، وهي صورة قاتمة عمادها شيطنة الإسلام والمسلمين، وظف فيها حشد من المصطلحات والتعابير الغريبة، نحتاج لجمعها إلى عمل مستقل، وهي في مجملها تدل على حقد غير مبرر في أغلب تجلياته، التي كان منها تقديمهم في صورة أناس برابرة متوحشين، لا عقل لهم، فهم كارثة طبيعية مدمرة (Sénac,1983, p17 )، شغلهم التمادي في قتل أتباع المسيح، والمبالغة في إفساد العالم ونشر أنواع الشرور في أرجائه. وهذه الصورة لا تختلف عن تلك التي رسمها يوحنا الدمشقي في القرن الثاني الهجري، وكررها الراهب السمعاني، وهي نفسها تلك التي تم توظيفها عند اشتداد حروب الإبادة ضد المسلمين في الأندلس، وما صحبها وتبعها من محاكم التفتيش.

**المطلب الثاني: حروب الاسترداد ومحاكم التفتيش**

كانت موقعة بلاط الشهداء سنة 114هـ إيذانا بتوقف الفتح الإسلامي في جنوب غرب أوربا، ولم يكد المسلمون يستقرون في الاندلس بعد الفتح حتى نشطت حروب شنها المسيحيون على المسلمين وسموا هذه الحروب حروب الاسترداد، وهي تسمية لا نرى لها وجها، خاصة وأنها طالت كل المسلمين بمن فيهم من أسلم من أهل البلد، وبناء على اسمها فقد كان الغرض من إطلاقها استرداد شبه

[2]الدولة الكارولنجية أو مملكة الفرنجة ( 751– 987م) عرفت هذه الدولة أزهى فتراتها في عهد الملك شارلمان بين 800 و 814م، إذ عرفت في عهده نهضة حضارية شاملة لعل أبرزها تلك النهضة العلمية الكبيرة التي ميزها حرص هذا الملك على نشر العلم من خلال بناء المدارس وتشجيع الحرفيين والصناع، وكانت لهذه الدولة علاقات جيدة مع بني العباس الذين كانوا خصوما للأمويين في الأندلس، كان شارلمان يستغل بذكاء الخلافات بين المسلمين في الأندلس، طمعا في إخراجهم منها.

ISSN : 2410-1818

الجزيرة الإيبيرية من أيدي المسلمين، وقد امتدت هذه الحرب على امتداد وجود المسلمين ولم يضعف سيرها الا بعد انهيار آخر إمارة إسلاميه في الأندلس وهي إمارة غرناطة، وليس يعني هذا أن المسيحيين توقفوا عند هذا الحد بل إنهم استمروا في مطاردة المسلمين سواء أولئك الذين أخفوا إسلامهم بل وحتى أولئك الذين هربوا إلى العدوة تمت مطاردتهم أيضا.

كانت هذه الحرب وما صاحبها من محاكم التفتيش- في الأندلس بصورة خاصة - تغذيها تصورات عن المسلمين مشوشة عن قصد أو غير قصد، لقد ظهرت هذه الحرب بتلك الصورة بسبب تراكم الأحقاد التي عملت الكنيسة على غرسها ورعايتها، لقد توفرت الأسباب الكافية ليتعرف اللاهوتيون في الأندلس الإسلامية على الإسلام والمسلمين عن قرب، لكن هذا لم يحدث، يشهد لعدم حدوث هذا أن جل الكتابات إن لم نقل جميعها تلك التي كتبها اللاهوتيون في الأندلس تدل على جهل كبير بالإسلام في جميع جوانبه، بل إن ما يمكن ملاحظته، أن هؤلاء لم يزيدوا في دراستهم للإسلام على ما قاله يوحنا الدمشقي، بل واستمروا في ترديد ذلك لمدة طويلة، وهو ما يضع فكرة التلاقي المعرفي بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس من جهة مساحتها وقيمتها موضع تساؤل، لكن هذا التساؤل تزول مبرراته إذا أدركنا أن العالم المسيحي لم يكن إقباله على علوم المسلمين في الأندلس إلا بما يحقق غرض التفوق عليهم.

أما محاكم التفتيش التي واكبت ما سمي بحرب الاسترداد فإنها زادت شراستها واتسعت دائرتها بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، وشملت المسلمين كما اليهود، واستهدفت مسح أي أثر للإسلام والمسلمين، على الرغم من أن هؤلاء كانوا يمثلون نسبة عالية من السكان، فضلا عن كونهم استوطنوا البلاد وعمروها لمئات السنين. ولقد كان لجملة التغيرات التي حصلت على مستوى العالم آنذاك الأثر الكبير في زيادة حدة وبطش محاكم التفتيش، إذ لم يعد العامل الديني وحده من يقوم بتوجيه هذه المحاكم، بل يمكن القول بأن الرغبة في التمدد التي أبدتها النزعة الإمبراطورية الناشئة وقام بتغذيتها ملوك قشتالة والقوى العلمانية الحديثة كانت حاضرة بصورة ظاهرة، ذلك أن أعمال التعذيب والقتل والتهجير التي حدثت في الأندلس باسم الكنيسة، حدث ما يناظرها في أمريكا الجنوبية لكن مع غلبة الطابع الدنيوي العلماني التجاري التوسعي على تلك الأعمال (كازاس)، هذا دون أن نغفل ظهور العثمانيين وتهديدهم لأوروبا من جهة الشرق، إذ كان ذلك سببا ظاهرا في زيادة العداء للإسلام والمسلمين.

كانت الفظائع التي ارتكبتها الكنيسة في حق (الهراطقة: المسلمون، اليهود، المسيحيون المخالفون للكنيسة الكاثوليكية)، المسلمين بصورة خاصة تشير إلى أنها كانت تعد لهذا الأمر من

ISSN : 2410-1818

زمن بعيد، فقد كان الرأي السائد في الأوساط الكنسية اللاتينية منذ فترة هو أن وجود المسلمين في إسبانيا يجب إزالته، وإزالة كل أعداء الصليب، لأن إسبانيا في اعتقادهم أرض خالصة لأتباع المسيح.

لقد كان لهذه الحروب وما صحبها من محاكم التفتيش أثر سيء على الكنيسة الكاثوليكية قبل غيرها، حيث نجحت في دفع قطاع لا بأس به من المسيحيين إلى معارضتها، خاصة إذا علمنا أن نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر مثلت فترة تشكل التيارات العلمانية المناهضة للدين بشكل عام، كما كان لهذه الحروب أثر كبير على تشكيل صورة عن المسلمين في غاية القبح، إذ تم نقل هذه الصورة عن طريق تظافر الكتابات التي تكرر نفسها إلى الأجيال اللاحقة، لتترسخ بذلك صورة في غاية السوء كانت لها نتائج بالغة الأثر حتى زماننا هذا في عرقلة محاولات التعارف في أجواء صحية.

**المطلب الثالث: العثمانيون القادمون من الشرق.**

مثل ظهور العثمانيين في شرق أوروبا وامتداد قوتهم إلى جنوبها ووسطها أحد أبرز العناوين التي صارت تحكم علاقات المسيحيين بالمسلمين في تلك الحقبة، فقد رأت أوروبا المسيحية أن العثمانيين يمثلون تحديا أكبر بل وخطرا وجوديا على المسيحية بالجملة، كان هذا الخوف مبررا إلى حد كبير، فالحروب الصليبية كانت من الناحية التنظيمية تلفظ أنفاسها الأخيرة، كما خاب ظن الكنيسة المسيحية في المغول الذين عدتهم في البداية مسيحيين(سوذرن، 2006، ص19) سخرتهم الإرادة الإلهية للقضاء على المسلمين المارقين، كان ثمة مبرر آخر لهذا الخوف، وهو أنه في الوقت الذي كانت فيه أوربا تستعيد الأراضي التي أخذت منها من قبل المسلمين في إيبيريا، كان العثمانيون يقضمون أطرافها الشرقية شيئا فشيئا، وازداد الشعور بالخطر بعد استيلاء العثمانيين على القسطنطينية عام 1453م.

أول ما يمكن ملاحظته أن الأوربيين في هذه المرحلة لم يعودوا يفرقون بين المسلمين والعثمانيين، الذين يطلقون عليهم أحيانا الاتراك، بل إن اسم الأتراك أصبح متطابقا مع المسلمين، مع وصفهم بالأوصاف ذاتها التي وصفوا بها سائر المسلمين من قبل.

مثل ظهور العثمانيين في الشرق تحديا وجوديا للمسيحية، خاصة بعد انهيار بيزنطة، وبسبب ذلك لم يعد الأمل لدى المسيحيين في الخلاص من الإسلام والمسلمين قائما، خاصة بعد أن تبدد أملهم في المغول الذين تحولوا إلى الإسلام، لقد عملت جملة من العوامل الداخلية التي تطورت داخل الكنيسة على مدى قرنين على الأقل، على تحويل النظر تجاه معالجة ما يعتمل داخلها، إذ بدأت تظهر بوادر التشكيك في الكاثوليكية، وبدأت معالم الدعوة إلى الإصلاح الديني تصدر أصواتا

ISSN : 2410-1818

خافتة، وكان لظهور قوة العثمانيين أثر في تشجيعها على التعبير عن نفسها، إلى أن أعلنت عن نفسها بشكل صريح في ثورة لوثر.

لم يكن لوثر Luther(1483- 1546م) مختلفا عن غيره من رجال الكنيسة الكاثوليك من حيث العداوة للأتراك (المسلمين)، بل إنه كان أشد تطرفا في توصيفه للمسلمين، لكن الزاوية التي انطلق منها في عداوته تلك كانت مختلفة.

كان لوثر ينطلق من رؤية إصلاحية دينية، مفادها أن الكنيسة الكاثوليكية بلغت الحدود القصوى من الفساد، ومن ثم ينبغي إصلاحها، بناء على هذه القناعة، كان ينظر إلى الأتراك من جهة تأثيرهم الإيجابي أو السلبي على حركته الإصلاحية، لم يكن لوثر يشارك كثيرا من رجال الكنيسة في قولهم بأن "محمد" وأتباعه يمثلون الدجال، فقد كان يرى أن الإسلام لا يمكنه أداء دور الدجال، وهذا بالنظر إلى لا معقوليته، فالدجال في نظره لا يعدو أن يكون البابا ذاته، وهنا يؤكد لوثر أن العالم المسيحي وقع فعلا تحت سطوة العدو الخارجي( الأتراك)، لكن الخلاص من العدو الخارجي يحتاج أولا إلى الخلاص من العدو الداخلي ( البابا)( Goddard,2000, p111)، يمثل الأتراك في نظر لوثر عصا الرب وعقابه، المسلط على المسيحيين بسبب خطاياهم، أما أولئك الذين يسعون لحرب الأتراك فإنهم يعارضون إرادة الرب، لأن حرب الأتراك لا تكون بتجييش الجيوش، إنما عن طريق الكفارة، فالأتراك هم عصا الرب التي تقود العصاة وتعيدهم إلى الإيمان، إنهم بمثابة المعلم الذي يجعل المسيحيين يخافون الرب ويصلون له(Tolan,2019 p105 )، فالأتراك كاثوليكيون أكثر من البابوات أنفسهم(Tolan,2019, p106)، فالأتراك يملؤون الجنة بالمسيحيين عن طريق زهق أرواحهم، في حين أن الباباوات يسعون لملء الجحيم بالمسيحيين عن طريق تعليمهم الآثم(Tolan,2019,p109).

أما كالفن Jhon Calvin (1509- 1564م)، رجل الإصلاح الديني الفرنسي فلم يكن يختلف في رؤيته وأحكامه عن لوثر، في حديثه عن الأتراك "المسلمين" دون تفريق، أما بالنسبة لموقفه الديني منهم فهو في غاية الوضوح، لا يختلف في ذلك عن رجال الكنيسة الكاثوليك، ولا عن لوثر، فهو يرى أن الأتراك ما داموا يضعون نبيهم محمد مكان الإله الابن ولا يؤمنون بالتجسد، ويقودون كثيرا من الناس إلى الضلال فهم يستحقون الموت(Goddard,2000, p112).

يتضح من خلال ما مر معنا أن لوثر وكالفن كلاهما لا يفرقان بين الأتراك والمسلمين، وهذا يشير بوضوح إلى تأثر المواقف الدينية بالأوضاع السياسية السائدة، وهذا ليس غريبا، إذ المسلمون كانوا آنذاك ممثلين في الأتراك العثمانيين الأقوياء، وموقف كليهما يلخص الموقف الأوربي في جملته.

ISSN : 2410-1818

**المبحث الثاني: الإسلام والمسلمون في عيون المسيحيين في القرون الوسطى.**

**تمهيد:** تبين لنا مما سبق أن العلاقات بين المسيحيين وبين المسلمين في القرون الوسطى مرت بمرحلتين منفصلتين، امتدت المرحلة الأولى من مفتتح الرسالة الإسلامية إلى نهاية القرن العاشر الميلادي، والثانية من القرن الحادي عشر الميلادي إلى القرن الرابع عشر الميلادي، شهدت المرحلة الأولى علاقات طبيعية إلى حد كبير على الرغم من الحروب الكبيرة التي اندلعت بينهما، أما الثانية فقد شهدت تحولا كبيرا تحت الراية الصليبية، إذ امتزجت فيها الحرب الدينية بالعداء الإثني، صاحبها إطلاق أوصاف مقززة على المسلمين شكلت في مجموعها صورة بالغة البشاعة مازالت تلقي بظلالها القاتمة على علاقات المسيحيين بالمسلمين، ويمكن تبين بعض ملامح هذه الصورة من خلال ما يأتي.

**المطلب الأول: المسلمون وثنيون**

وصف المسلمين بالوثنيين كان أبرز الأوصاف التي كان يطلقها المسيحيون عليهم منذ أمد بعيد يعود إلى زمن ظهور النبي محمد صلى الله عليه وسلم، كان هذا الوصف يطلق من أجل صرف المسيحيين عن الدخول في الإسلام خصوصا المسيحيين العرب الذين كانوا على صلة مباشرة بالقرآن بحكم اللغة، هذا فضلا عن زيادة العداء للمسلمين لذات الغرض، فمن يعتنق الإسلام وضعوا لهم مكانا في مجمع أعداء الإله من أجل ثني المسيحيين عن التحول إلى الإسلام. (Tolan,p5 )، ومن خلال البحث والنظر في كتابات المؤرخين المسيحيين الأوائل نجد Jerome يؤكد أن بيدا [3] (Bede ) كان دائما يزعم أن المسلمين كانوا من أتباع كوكب الزهرة (Jerome, 1955,p.49).

لم يكن يوحنا الدمشقي (ت 749م) يرى في الإسلام أكثر من ديانة وثنية جاء بها نبي منتحل أنشأ هرطقته بعد أن اطلع على العهدين القديم والجديد، والواقع (الدمشقي، 1997، ص 50) أنه كان سباقا إلى إطلاق مجموعة من التسميات والأوصاف على المسلمين، فقد سماهم الإسماعيليين نسبة إلى إسماعيل، وسماهم الهاجريين نسبة إلى هاجر، وسماهم أيضا الساريين(Saracens)، وهم الذين جردتهم سارة من الميراث، كما يدعي أنهم كانوا يعبدون نجمة الصبح والزهرة[4] ( الدمشقي،

[3] القديس بيدا (673– 735م) راهب ومؤرخ مسيحي أنجلوسكسوني. Britannica, T. Editors of Encyclopaedia (Invalid Date). St. Bede the Venerable. Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/biography/Saint-Bede-the-VenerableBede

[4] هذا توافق في الرأي قد يبدو غريبا بين يوحنا الدمشقي وبيدا، وقد كانا متعاصرين، وهو ما يشير إلى أن هذه الفكرة كانت شائعة في الأوساط المسيحية، وليس هناك ما يشير إلى أن أحدهما أخذ عن الآخر.

ISSN : 2410-1818

1997، ص49)، لكن هذه الأوصاف التي أطلقها الدمشقي وغيره لم يتم إثقال كاهلها بمحمولات إيديولوجية إلا بعد مضي فترة ليست بالقصيرة.

سنرى كيف أن هذه التسميات والأوصاف أصبحت متداولة لاحقا، بل وتم الأخذ بها دون أي مناقشة[5]، ولقد كان هذا هو الموقف السائد في تلك المرحلة، وهو موقف مبني كما عرفنا على رؤية دينية تم نسجها في نطاق الجدل الديني، القائم على الردود، لكن الكتابات التي ذاعت وانتشرت فيما بعد مع الحملة الصليبية الأولى تحديدا لم يقف كتابها عند وصف المسلمين بأنهم: وثنيون وحسب، بل إنهم كانوا يعبدون محمدا، مثل هذه الرواية كان أكثر تداولا، وهي روايات قائمة على التزييف بشهادة مؤرخي الغرب أنفسهم، ومما ورد في هذا الشأن ما حدث عند دخول القائد الصليبي تانكريد دي أوتفيل حيث سيقت واقعة الاحتفال بنجاح الحملة الصليبية الأولى في الاستيلاء على القدس عام 1099م على الوجه الآتي: لما "فتح تانكريد الأبواب عنوة، وجد تمثالا جالسًا على عرش مرتفع، كان التمثال تمثالًا مصبوبًا من الفضة. . . ثقيل جدًا لدرجة أن ستة رجال بأذرع قوية بالكاد تمكنوا من رفعها. .. كانت صورة لمحمد، مغطاة بالكامل بالجواهر والأقمشة الأرجوانية ولامعة بالذهب"، أصبح هيكل سليمان مركز عبادة Mahummet (محمد)؛ يقدم راؤول صورة حية عن "التجديف" التي ينسبها المؤرخون الصليبيون المختلفون إلى المسلمين. اعتقد تانكريد في البداية أن التمثال قد يكون تمثالًا للمريخ أو أبولو، أدرك أخيرًا أنه محمد، الذي يسميه الدجال " 2002, pp ,(Tolan)" . Antichrist . 120-119).

وغني عن القول أن الصليبيين لم يصادفوا أبدًا أصناما لـ"محمد" في قبة الصخرة أو في أي مكان آخر. هذه رواية / خيال ficition، كررها عدد من مؤرخي الحروب الصليبية، وهي تقدم صورة تبريرية حية، لتوضيح كيف أن الصليبيين "أخمدوا عبادة الأصنام وأعادوا الإيمان". هؤلاء المؤلفون، ورجال الدين الذين تعلموا باللغة اللاتينية، والذين قرأوا أوصاف الطوائف الوثنية في كتبهم (غالبًا ما تتكون من مقتطفات من فيرجيل وأوفيد وغيرهم) والذين قرأوا عن تدمير هذه الأصنام من قبل رسل وقديسي الكنيسة الأولى، تخيلوا بطبيعة الحال، خصومهم، أعداء "جيش الله" [المسلمين في هذا السياق]، في غطاء الوثنية المألوف والمحتقر، ويذكروا اسم النبي دائما مشوهًا بطرق مختلفة ( Mahomet، Mamet، Mahound....) وافترضوا، أن Saracens يجب أن يكون اسم أحد آلهة العرب / المسلمين " (Tolan,2019. P.25-26)". إن هذا يثبت بصورة قاطعة أن مثل هذه الأحكام لم تبن على معاينة كافية للأحداث والوقائع، بل يبدو أنها تمت صياغتها لإعطاء الصليبيين انطباعا أن بأن ما قاموا به من مذابح له ما يبرره، "إن وثنية المسلمين [كما في المخيال الصليبي] هي عنصر

[5] هذه التسميات يتداولها المستشرقون في كتاباتهم، وهنا يمكن ذكر كتاب: الهاجريون لمايكل كوك.

ISSN : 2410-1818

أساسي في التبرير اللاهوتي للحملة الصليبية. (Tolan, 2002, p120)، ذلك أن الصنم المعبود (Mahomet) يوفر تركيزًا ملموسًا ومرضيًا للفارس المسيحي الصالح ، كما رأينا في هذه العينة من النصوص اللاتينية والفرنسية في القرن الثاني عشر المتعلقة بالحملة الصليبية الأولى. سيؤدي النصر المسيحي إلى انهيار المعبود Mahomet ، سواء تم تحطيمه من قبل الفارس المسيحي (كما نرى مع تانكريد في تأريخ راؤول دي كاين للقرن الثاني عشر أو القديس جورج في قصة ريتشارد جونسون الرومانسية في القرن السادس عشر). (Tolan, 2019,p 29) ،

لقد كان إلصاق وصف الوثنية بالمسلمين كافيا لشن الحرب ضدهم وعدم القبول بأي صورة من صور المهادنة، وعلى الرغم من أن ها الوصف لم يكن سوى دعاية كاذبة، بشهادة مؤرخيهم، إلا أنه استمر على امتداد الحروب الصليبية، وحتى إلى ما بعدها.

**المطلب الثاني: التوحش والعداء للحضارة.**

لا يمكن تجاهل العلاقات الثقافية عموما والعلمية خصوصا بين المسلمين وبين المسيحيين خلال العصور الوسطى المتأخرة، حيث ازدهرت هذه العلاقات وتوسعت، جسدها إقبال كبير من المسيحيين على علوم العرب والمسلمين، وهذا الإقبال شمل كل حقول العلم والمعرفة المشهورة آنذاك، كان ذلك ناتجا عن إدراك تام بأن مركز الثقل في المعرفة قد انتقل إلى المسلمين(Hannam,2009, p.71 ). هذا الوجه من العلاقة يقابله وجه آخر على النقيض تماما، يتمثل في وصف المسلمين وأهل الشرق عموما بالتوحش والعداء للحضارة التي هي أوصاف على نقيض العلم.

لم تكن مسألة وصف الشرق بالبربرية والهمجية غريبة عن أوربا المسيحية حتى قبل بزوغ الرسالة الإسلامية، ف"لطالما كانت الأفكار الغربية حول الشرق ثنائية التفرع، حيث ينقسم العالم إلى شرق وغرب. يتم إعطاء خصائص لكل منطقة والتي بدورها شكلت القوالب النمطية العرقية. من جهة، هناك الغرب الجيد المألوف، وعلى الجانب الآخر يوجد الشرق الآخر السيء، وخلال الحروب الصليبية في القرنين الحادي عشر والثالث عشر، رُسمت هذه الثنائية على خريطة المعالم الجغرافية (Tolan,2002, p.2) "، وهنا يمكن الإشارة إلى أن هذه القسمة الثنائية للعالم ميراث يوناني بامتياز، حيث عرف عنهم وصف الشعوب الأخرى بالبربرية، بكل ما تحمله من دلالات مركبة. وكما لا يخفى فقد تلاقت هذه الأفكار القائلة بتفوق اليونان، وهي أفكار مبنية على أسس إثنية مع تلك التي شحنت بها شروح الكتاب المقدس، ولم يغفل جميعهم عن وصف الآخرين الأغيار بالتوحش والهمجية، حيث "ذكر العهد القديم عن إسماعيل أنه كان بدويا، شرسا رافعا يده على الجميع. فهل هناك ما يمكن وصف السرازانيين به أدق مما وصف به جدهم إسماعيل (سوذرن، 2006، ص 53)"، على نفس المسلك سار أرباب الجدل المسيحي في مناظراتهم علماء المسلمين، إذ لا يتورعون عن اتهام

ISSN : 2410-1818

مناظريهم بضعف عقولهم وقلة فهمهم، يتضح هذا من خلال أحد الحوارات التي دارت بين الراهب السمعاني وثلاثة من فقهاء المسلمين، كان الحوار كالآتي: "قال الراهب: يا رشيد لقد سألت عن معنى لطيف وشيء دقيق يحتاج من يسمعه إلى عقل واف ولب صاف. فأنا أخشى لكدر عقلك ألا يصل إلى فهمك ما رأته الحكمة الإلهية في السياسة والتدبير من أجل خلاص العالم (السمعاني، دت، ص 44)، وفي موضع آخر يتكرر الموقف نفسه، فنجد الراهب يتهم محاوره في فهمه، إذ نجده يقول: " فهم ذلك عسر جدا عليك وعلى من كان نظيرك من أهل دينك، لأن اعتقاد النصارى أن دينهم موضوع من الله وهو يناسب الطبيعة الإلهية والجوهر اللطيف وأوصافه معقولة غير محسوسة... وأما أنتم المسلمين العائشين بهوى الجسم، فمذهبكم وشريعتكم منسوبان إلى الهوى واللذة، وإلى غلظ اللحم والدم...(السمعاني، دت، ص. 56)". هكذا يظهر السمعاني عدم احترامه لمحاوريه واتهامهم في عقولهم، رغم تنبيهه من قبل هؤلاء العلماء، وهو ما يختصر نزعة الاستعلاء التي تطبع سلوك هؤلاء الرهبان، وهي مخالفة صريحة لروح دعوة المسيح.

وفي هذا العهد يمكن القول بأن هذه الأوصاف ورغم مجاوزتها حد اللباقة، إلا أنها إذا قيست بما صار يطلق على المسلمين لاحقا عدت في خانة ما يمكن التغاضي عنه، ذلك أن العالم المسيحي وخلال الفترة التي سبقت الحملة الصليبية الأولى عام 1095م انتشرت فيه لائحة من الألفاظ المشينة، وقائمة طويلة من الأوصاف التي يتم استحضارها عند ذكر المسلمين، ويمكن ذكر أمثلة عنها في الآتي:

1- **الساراسان (Saracens):** من الألفاظ التي كانت منتشرة لفظة" الساراسان"، هذه الكلمة رغم وجودها في الأدبيات المسيحية من قبل، حيث مر معنا أن يوحنا الدمشقي استخدمها، إلا أنها في هذا العهد أضيفت إليها محمولات جديدة لم تكن معروفة، صحيح أن الدمشقي استخدمها ازدراء، لكنه لم يجاوز القول بأن هؤلاء هم أبناء إسماعيل الذين حرموا من الميراث من قبل سارة لأن أمهم أمَة، أما في عهد الراهب السمعاني كما مر معنا فالساراسان ليسوا مجرد نسل ينسب لإسماعيل فحسب، بل فوق ذلك هم قوم غلاظ أجلاف، سريعو الغضب يستلون سيوفهم لأتفه الأسباب للفتك بخصومهم، وقد غذى نبيهم المتوهم فيهم هذا الاتجاه، وسيرته العنيفة المليئة بالغزو شاهدة على ذلك على زعمهم، بهذه الصورة تضاف مدلولات جديدة في كل فترة زمنية، وهذه المدلولات تعبير عن الحقد المتراكم في كل مرة تجاه المسلمين، بحيث يمكننا من خلال فحص تاريخ المدلولات المضافة فهم طبيعة النظرة التي ينظر من خلالها المسيحيون إلى المسلمين. في الفترة التي سبقت الحملات الصليبية أضيفت مدلولات أخرى إلى هذه الكلمة، فالساراسان أصبح معناها قريبا من معنى الحيات المؤذية كالثعابين والأفاعي وغيرها، وصار يذكر كذلك مقرونا

ISSN : 2410-1818

بالجراد الذي يدمر كل شيء يصل إليه ( ماستناك، 2009، ص159)، بل وبكل كائن مؤذ للإنسان، مؤذ للزرع والضرع.

2- **الطاعون الأسود:** كلما أوغل المسيحيون في عدائهم للمسلمين كلما اخترعوا ونحتوا مصطلحات عبروا بها عن هذا العداء، ومن ذلك أنهم قالوا عن المسلمين بأنهم الطاعون، وكان بيدا(Bede) من أوائل من أطلق هذا الوصف حيث قال عن المسلمين بعد أن بلغته أخبار وصولهم إلى جنوب فرنسا" إن الساراسان شأن طاعون فاتك عظيم، قد خربوا فرنسا بما أنزلوه بها من دمار يدعو إلى الشفقة(ماستناك، 2009، ص154)"، وقد صار هذا الوصف مألوفا خصوصا في الفترة المتأخرة من القرن الرابع عشر أي بعد موجة الطاعون الذي وصل أوربا وعرف بالموت الأسود بين 1347و 1351م، وكما نظرت الكنيسة إلى موجة الطاعون على أنها عذاب من الله مسلط على الناس لعصيانهم، فكذلك نظروا إلى المسلمين، فمثلما قالوا عن هزيمة هرقل من قبل أمام خالد بن الوليد بأنها عقاب على ذنوبهم، أعادوا تكرار العبارات نفسها، لكنها في العهد المتأخر سيقت بصورة أكثر حدة، فكما كان الطاعون" الموت الأسود" عقابا من الله، كذلك المسلمون، فهم مثل الطاعون من كل وجه، وعلى الرغم من الصور التي تنقلها التواريخ عن حال أوربا في زمن الطاعون من جهة شيوع الفوضى والأوساخ المقززة، وقد كانت السبب في اكتساح الطاعون وإبادته لمدن بأكملها، إلا أن المسلمين في نظرهم ليسوا أقل سوءا من الطاعون من جهة أسبابه ونتائجه.

3- **الإفراط في الجنس:** كان من الأوصاف التي أطلقها العالم المسيحي على المسلمين أنهم كانوا مفرطين في الجنس، ورأوا أن هذا الوصف يلحقهم كما لحق قدوتهم " محمد". وكان أول من أذاع هذه الفرية يوحنا الدمشقي وتبعه الراهب السمعاني في ذلك، فلم تكن الحروب الصليبية هي المرة الأولى التي وصف فيها العالم المسيحي الشرق على أنه جنسي بشكل مفرط. فقد شكلت الهجمات الجدلية السابقة على الإسلام المفاهيم المسيحية عن الشرق وجعلتها في مواجهة الغرب العفيف. تصف هذه النصوص المسيحية الشرق بأنه تهديد جنسي، مع تصوير الإسلام على أنه لا ينفصل عن الإفراط في الجنس. يصف جون تولان هذا النمط قائلاً: إن أحد الموضوعات المفضلة لدى المجادلين المسيحيين هو الجنس: زوجات محمد، وتعدد الزوجات عند المسلمين، والحور العين ["الجنة اللحمية"] الموعودة للمؤمنين. كل هذا غريب عن المثل الأعلى للعزوبة المسيحية والأفكار المسيحية عن السماء، لكنه يناسب جيدًا المذاهب المنسوبة تقليديا على أنها ضد المسيح. (Tolan, 2002,p12.).

ISSN : 2410-1818

**المطلب الثالث: الوصف المسيء للنبي محمد صلى الله عليه وسلم.**

كان حظ النبي محمد عليه الصلاة والسلام من القدح والذم كبيرا، وإطلاق الأوصاف القبيحة عليه كان أمرا شائعا، وقد مر معنا كيف تم وصفه من قبل من أرخوا من المسيحيين للفترة التي تلت بعثته، فيوحنا الدمشقي قال عنه بأنه " منتحل"، وأنه" أحرز لنفسه حظوة لدى الشعب عبر تظاهره بالتقوى"، وأما الراهب السمعاني فإنه نسب إليه ثلاثة خصال: "التهديد بالسيف والترخيص والإقناع السفسطي أو الخيالي ( السمعاني، دت، ص15 )"، وقال أيضا:" إن محمدا كان من الأعراب من بني قريش من أمه إسماعيل من بني هاجر المصرية عبدة سارة امرأة إبراهيم، وكان رجلا سفارا، يتردد بسفره إلى بيت المقدس فأضاف برجل نصراني نسطوري اسمه بحيرا( السمعاني، د.ت، ص 25)" وباقي القصة معروفة، والسمعاني هنا أعاد تكرار ما سبقه إليه الدمشقي في كل ما ذكره، وما يجدر التنبيه عليه هو تذكير السمعاني في كل مرة كما فعل الدمشقي بنسب محمد □ صلى الله عليه وسلم □ وأنه من نسل هاجر عبدة سارة، وهذا الفعل فيه غمز ظاهر فحواه أن إسماعيل وأبناءه عبيد محرومون من الإرث بما فيه الإرث النبوي، وأنهم بذلك ليسوا داخلين في العهد. كان هذا الغمز مألوفا، وقد تسلل منذ أمد إلى شروح الكتاب المقدس، حيث" ترمز الشروح الإنجيلية القديمة بإسحاق للمسيح، وبأعقاب إسحاق للكنيسة، أما إسماعيل وأعقابه فهم اليهود في نظر هذه الشروح، كان هذا هو التأويل المجازي للأحداث المذكورة في سفر التكوين، بيد أن المفسرين الأوائل هؤلاء آمنوا حرفيا بأن أعقاب إسماعيل الحقيقيين هم السرازانيون ( سوذرن، 2006، ص 53)". ليس من السهل تتبع جميع الأوصاف التي أطلقها رجال الكنيسة ومؤرخوها على النبي محمد □ صلى الله عليه وسلم- ، ذلك أن هذه الأوصاف تزداد باستمرار وتزداد شناعتها، تبعا لما كان يلحقها من تأويلات، وذلك بحكم قلة المعلومات فضلا عن تعرض ما كان متداولا منها للتزييف المستمر، وهي في جملتها لا تخرج عن الخط العام الذي رسمته الكنيسة، " ذكر القديس يولوجيوس القرطبي (عاش في القرن التاسع) في كتابه (Memoriale Sanctorum) أنه رأى أحد القساوسة واسمه بيرفيكتوس[ يتحدث] عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال □ والعياذ بالله: (إنه مفتون بأوهام شيطانية، كرس نفسه لتدنيس المقدسات، أفسد بسمه القاتل قلوب العديد من البلهاء وألحق بهم الهلاك الأبدي. يفتقر إلى أي حكمة روحية، جعلهم رعايا للشيطان الذي سيعاني معه أبشع العقوبات في الجحيم" ""Tolan, 2002. P80

وفي ذات السياق وعلى نفس النهج يقول جويبيرت أوف نوجينت الفرنسية (ت. 1124) في كتابه الذي كتبه عن تاريخ الحرب الصليبية الأولى:

( Dei gesta per Francos (The Deeds of God through the Franks)

ISSN : 2410-1818

" وفقًا للرأي السائد، كان هناك رجل اسمه ماثوماس [محمد]، هو الذي قاد الشرقيين بعيدًا عن الإيمان بالابن والروح القدس ... لقد أعطاهم السيطرة على كل نوع من السلوك المشين ... ولا فائدة من مناقشة ما إذا كانت هذه الأشياء المذكورة عنه صوابا أو خطأ، بما أننا نفكر فقط في طبيعة هذا المعلم الجديد، الذي تستمر سمعته في الجرائم الكبرى بالانتشار. قد يتكلم المرء بأمان وبشكل سلبي عن رجل يفوق شره ويتجاوز كل شر يمكن أن يقال عنه (Levine, 1997.p36)" ونوغنت هذا هو نفسه الذي كتب أول سيرة للنبي محمد بأوربا الغربية في النصف الأول من القرن الثاني عشر، كان نوغنت يملك عقلية متميزة مقارنة بمعاصريه وقد أدرك بما تجمع لديه من معطيات ضئيلة عن حياه نبي الإسلام أن الصورة السائدة عنه وعن الدين الذي جاء به غير صحيحه على الإطلاق بين أنه اعتنق السائد لأنه كما قال لا يقدر على مخالفه الرأي الشائع والنص المقدس، نص العهد القديم(سوذرن، 2006، ص17).

ويورد تولان Tolan أن ( Embrico of Mainz ت: 1077) في كتابه (حياة محمد) الذي كتبه باللاتينية في القرن 13، يصف النبي (ص) بالتالي "سعى [محمد] إلى مدح وثناء الرجال عن طريق خداعهم بالسحر، وقد أفسد تعصبه الكنيسة ". يعلق جون تولان على هذه العبارة: "بإن وصف عمل مؤسس الإسلام "بالخداع السحري" هدفه أن يشرح للقارئ كلاً من الطبيعة الشيطانية للإسلام وفي نفس الوقت نجاحه الهائل في كسب المهتدين." (Tolan,2002,p142).

لم تكن الصورة المشوهة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم شائعة في الأوساط الكنسية وحسب، بل نجد نفس الصورة عند الشعراء والفنانين، بل وحتى في الأغاني الشعبية التي كانت متداولة في أوربا في القرون الوسطى، في نفس الوقت تقريبًا الذي تخيل فيه مؤرخو الحملات الصليبية ماهوميت باعتباره معبودًا لأعدائهم المسلمين (سراسنة)، وضع شاعر فرنسي مجهول في كتابه Chanson de Roland [كتب تقريبا في منتصف القرن الثاني عشر]، النص التأسيسي لما أصبح أحد الأنواع الرئيسية لأدب العصور الوسطى ، the chansons de geste. تصور ملحمته كما هي محفوظة في مخطوطة أكسفورد عبادة العرب الأصنام بطرق مشابهة جدًا مثل تشانسون دي أنتيوش [ أغاني أنطاكيا]: "الوثنيون" يعبدون ثالوثًا من الأصنام: ماهوميت [محمد] وأبولين وتيرفاغانت ، وهو نوع من الثالوث المعادي للمسيحية( Edgington, Sweetenham, 2011.p107-205).

لم تتوقف موجة إلصاق الأوصاف الردية بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، بل استمرت وزادت حدتها، وامتدت على نطاق واسع يصعب حصره، من توما الإكويني إلى دانتي اليغيري، ومن يوحنا الدمشقي إلى كالفن، فالنبي محمد صلى الله عليه وسلم عدو جميع المسيحيين.

ISSN : 2410-1818

**المبحث الثالث: نتائج التمركز الديني المسيحي.**

**المطلب الأول: تقسيم المعمورة.**

في الإسلام يقوم تقسيم المعمورة على أساس التوحيد، والناس إما مؤمن أو كافر، والكفر وصف لا يوجب القتل، إنما يوجب الدعوة، فالكافر مشروع هداية، ودائرة التوحيد تتسع باستمرار بناء على ذلك، بالنسبة للعالم المسيحي تشكلت رؤيته للمعمورة تشكيلا إكليركيا، قوامه الكنيسة التي تعبر عن نعمة المسيح، والناس إما أبناء الصليب وإما أعداؤه، وأعداء الصليب تلبسهم الشيطان، وبالتالي وجب تطهيرهم من تسلط الشيطان عليهم بقتلهم.

طبقا لهذه الرؤية المسيحية للمعمورة التي أصبحت محكمة البنيان مع بداية العصور الوسطى المسيحية المتأخرة على الأقل، طفت ظاهرة لم تكن معروفة من قبل بتلك الحدة، وهي زيادة العداء تدريجيا واستحكامه لدى أوربا المسيحية تجاه المسلمين بحكم المجاورة، في هذه الفترة أصبحت المعمورة في القسم الأكبر منها مقسمة لأول مرة في التاريخ بين أوربا المسيحية من جهة، وبين المسلمين من جهة ثانية، فالمسلمون ومعهم غيرهم من الوثنيين ينتمون إلى عالم الظلام، وإلى عالم الضلال الديني والتوحش، وهؤلاء لا نصيب لهم من الحضارة، ساعدت الحدود الطبيعية على ترسيخ هذه الفكرة، فالبحر المتوسط فاصل مائي طبيعي من الجنوب، ومضيق البوسفور من الشرق، وفي هذا المضمار يمكن تبين طبيعة النظرة التي تم تشكيلها لمضيق البوسفور فقد " كان يُنظر إلى القسطنطينية على أنها بوابة الشرق وعبور مضيق القديس جورج (البوسفور)، وهي قناة صغيرة بعرض ميلين كانت رمزًا مهمًا للتمييز بين الشرق والغرب. أخذ هذا المعبر دورًا حيويًا في أعمال الحملات الصليبية. إنها لحظة العبور من المألوف إلى أرض الأجنبي المجهول الآخر. تم التأكيد على أهمية هذا الانقسام في العديد من المصادر الغربية التي تؤرخ للحروب الصليبية. يمكننا أن نرى أهمية هذا المضيق، على سبيل المثال، من خلال كتابات ويليام الصوري، المؤرخ الأول للدول الصليبية، الذي أكد على أهمية المرور، واصفًا إياه بأنه "الحد المعروف جيدًا بين أوروبا وآسيا ". بالنسبة إلى ويليام والعديد من الكتاب الآخرين، يعتبر هذا تقسيمًا جغرافيًا واضحًا بين المألوف والآخر، وهو الفصل الذي من شأنه تشكيل التصورات عن الشرق وما يعنيه أن يكون شرقيا أو غربيا(Tolan,2002,p2)".

تم تقسيم المعمورة من قبل الكنيسة على صورة تجعل عالم الإسلام محلا للظلام، وتجعل الشرق محلا للأساطير الغريبة والأسرار الغامضة، نمت وترعرعت هذه الفكرة في ظل رؤية مسيحية للعالم تجعل الكنيسة مركزه، فكان التقسيم دينيا، يشطر العالم شطرين، شطر مملكة المسيح التي تمد ظلها عبر الكنيسة، وشطر مملكة الخارجين عن الناموس من أعداء المسيح، وهؤلاء لا

ISSN : 2410-1818

ينبغي التسامح معهم البتة، بل ينبغي قتلهم والقضاء عليهم. تم غرس هذه الفكرة مع ربطها بالخلاص على صورة جعلتها المرآة الوحيدة التي ينظر منها المسيحي إلى العالم، وهي النظرة التي لا يمكن تفسير الشطر الأكبر من حركة الكشوفات الجغرافية الكبرى التي كانت في محصلتها حركة اكتشاف الإنسان المسيحي الأوربي لبقية العالم إلا من خلالها، لم تكن زيادة نفوذ العلمانيين في أوربا مع نهاية القرن الخامس عشر لتحد من هذه النظرة، بل على العكس من ذلك، تبنتها وبررت بها حركة التوسع الإمبراطوري الذي تحول لاحقا إلى حركة امبريالية استعمارية واسعة، كان سياق الأحداث يشير إلى أن تخلي القوى الحديثة عن الرؤية الكنسية للعالم سيقود لا محالة إلى التخلي عن هذه الرؤية في كل ما يتصل بتقسيم العالم، لكن الأحداث اللاحقة بينت أن الرؤية الكنسية تم توريثها في الشطر المتصل بتقسيم المعمورة، لكن هذه المرة تم الاحتفاظ بهذا لتكون في خدمة القوى الاستعمارية الناشئة. في نطاق هذه النظرة العلمانية الجديدة في شكلها الظاهري على الأقل تم الاحتفاظ بكل الإرث الكنسي ليتم دمجه في الحركة الحديثة، لكن هذه المرة تحت مسمى" الغرب "، وأصبح يعرف بـ" الغرب المسيحي "، عندها انتقل مركز الثقل في توجيه دفة العلاقة بين قسمي المعمورة إلى الغرب الناشئ حديثا ليصبح مبشرا بالحضارة بعد أن كان أسلافه مبشرين بالمسيحية. وفي تقديرنا لا يمكن تفسير حالة العداء المتأصلة في الغرب الحالي إلا باستحضار المقولات والتوصيفات الكنسية القروسطية، التي بدورها قامت على تأويلات لبعض ما ورد في الكتاب المقدس، ونقصد بها النصوص التي تنضح باللعنات على الأغيار. " بالنسبة لغرب العصور الوسطى، لم يكن الشرق مكانًا للسيطرة عليه، بل مكانًا للتفوق العسكري والتكنولوجي والمادي. لم تكن هناك طريقة مجدية للغرب للهيمنة على الشرق كما فعل في الفترة الاستعمارية اللاحقة. بالرغم من هذا، فإن العديد من الأفكار التي نشأت حول الشرق في العصور الوسطى تعكس نفس الثقة في القوة المهيمنة والتي تردد صداها في الصور الاستعمارية اللاحقة. أصر المفكرون المسيحيون على أن المسيحية متفوقة على الإسلام، وأنتجت لقرون سلسلة من الهجمات الجدلية على الدين الإسلامي. عمل العالم المسيحي أيضًا على القضاء على الفاعلية الإسلامية، فقد تم تصويرهم على أنهم "وثيون" وعلى أنهم جزء من خطة الله كأدوات عقاب على خطايا المسيحيين.(Tolan,2002,p4)".

**المطلب الثاني: زيادة العداء للآخر.**

تشكلت لدى رجال الكنيسة المسيحية في القرون الوسطى المتأخرة قناعة راسخة مفادها أن استمرار الكنيسة وامتدادها مرتبط بتضخيم عدو موجود أو خلق عدو جديد، كان هذا هو المسلك الذي سلكته الكنيسة في الحد من خطر الإسلام ومنع تحول المسيحيين إليه، لا يتوقف الأمر على علاقة العالم المسيحي بالإسلام والمسلمين فقط، بل امتد ليشمل غيرهم، لم يكن هذا أمرا غريبا، بل كان أمرا طبيعيا بناء على تقسيم الكنيسة للمعمورة، ولم تكن الأحداث اللاحقة سوى ترسيخ

ISSN : 2410-1818

لهذا التقسيم، لكن الجديد في هذا هو أن العداء الذي وطدت الكنيسة قواعده انتقلت شرارته وأصبح المحرك الأساسي حتى لأولئك العلمانيين الذين كانت صلتهم بالكنيسة بالغة الهشاشة، لقد تحولت هذه الرؤية الكنسية إلى ثقافة سائدة في أوربا يتم من خلالها تحديد من هو العدو.

في النصف الثاني من القرن الخامس عشر كان كل شيء يشير إلى أن روحا جديدة سرت في نفس الإنسان الأوربي، جعلته يمد بصره إلى خارج حدود أوربا التي يعرفها، وإلى خارج حدود العالم الذي كان معروفا لديه آنذاك، لقد كان مدفوعا برغبة جارفة في مد ظل الكنيسة على بقاع جديدة من الأرض، ومدفوعا بالرغبة في اكتشاف العالم الذي لم تتح له الفرصة لاكتشافه من قبل.

يصور لنا صاحب كتاب " المسيحية والسيف"[6] كيف كان تصرف جنود قشتالة وقادتهم مع سكان أمريكا الجنوبية، وينقل لنا مشاهد مروعة لجنود يطاردون أناسا عزلا من غير سبب، يطلقون عليهم الكلاب الشرسة لتمزق أجسادهم العارية ( كازاس، د.ت، ص.29)، ولا يصدر من هؤلاء الجنود وقادتهم سوى الضحكات المقززة، بل إن هؤلاء القادة عادة ما كانوا يقابلون الأيدي التي تقدم إليهم الهدايا بالقطع، بذريعة إخفاء هؤلاء للذهب، " إنني أقول الحقيقة لأنني شهدتها بأم عيني، كان المسيحيون ينظرون إلى الهنود الحمر لا كما ينظرون إلى الحيوانات ويا ليتهم اعتبروهم حيوانات، بل أقل قدرا من الدواب وأحط شأنا...( كازاس، د.ت، ص26)"، عندما جاء راهب لأحد زعماء القبيلة وطلب منه أن يغتنم الوقت القصير الذي بقي أمامه قبل موته ويؤمن، لأن إيمانه سينجيه من النار ويدخله الجنة، "سأل زعيم القبيلة الراهب: هل هناك مسيحيون في الجنة؟ قال الراهب: معظمهم هناك. عندها قال الزعيم الهندي من غير تردد: إنني أفضل دخول النار عن أن ألتقي بكم في الجنة، أرسلني إلى النار( كازاس، د.ت، ص36).

هذه واحدة من الصور المفزعة التي تشير إلى تحول جذري في توسيع دائرة العداء الأوربي المسيحي الموجه إلى المختلف عنه، ليس فقط من جهة الدين، بل المختلف عنه من جهة طريقة الحياة، وحتى من جهة عدم تلاقي المصالح وليس بالضرورة تعارضها، فلم يعد الأمر متعلقا بمد ظل المسيحية وحسب، وإنما بمد شبكة المصالح وإن اقتضى القيام بعمليات إبادة منظمة، وهذا ما تم على نطاق واسع في أمريكا الشمالية كما في أمريكا الجنوبية، وفي أماكن أخرى من العالم، صاحب ذلك

[6] برتولومي دي لاس كازاس، المسيحية والسيف، وثائق إبادة هنود القارة الأمريكية على أيدي المسيحيين الإسبان. ترجمة: سميرة عزمي الزين، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية. وهذا الكتاب نشرته دار الفضيلة في القاهرة تحت عنوان آخر هو: مذابح الهنود الحمر.

الكتاب وثيقة تاريخية مهمة، نقل فيه صاحبه وقائع مرعبة لما قام به الجنود الإسبان في مناطق مختلفة من أمريكا الجنوبية والوسطى، وكل ذلك كان باسم المسيح وبمباركة الرهبان المسيحيين الفاسدين.

ISSN : 2410-1818

إنتاج خطابات إيديولوجية معادية تجاه الآخر غير الأوربي تصمه بالتخلف والبربرية، بل وتخرجه حتى من دائرة الآدمية، وتلك الخطابات مازالت نتائجها وثمارها المرة تظهر بين وقت وآخر.

**خاتمة وتوصيات:**

حاولنا من خلال ما سبق أن نسبر طرفا من تلك الزوايا التاريخية التي تخبئ وقائع لا حد لها، وقائع كان لها دور مركزي في بناء صورة مازالت ماثلة إلى اليوم، وقد تبين لنا أن هذه الصورة المشوهة تم تركيبها من ثلاثة عناصر متكاملة؛ نبي الإسلام، الإسلام والمسلمون، كما تبين أن مجمل مكوناتها كان متخيلا، سعت الكنيسة الكاثوليكية عن طريق أذرعها المختلفة على غرس هذه الصورة وجعلها من المسلمات التي لا تقبل المناقشة بأي وجه، واستعانت في كل ذلك بالموروث الديني الكامن في الكتاب المقدس خصوصا في العهد القديم، تلك النصوص التي تحط من شأن الأغيار والمخالفين، حيث أعادت إحياءه مع شحنه بتأويلات لاهوتية تم تركيبها مع الرؤية اليونانية الرومانية التي تصم الأغيار بالتوحش ومعاداة الحضارة، وهذا ما عمق هذه التوجه المتحيز بشكل أكبر. استعانت الكنيسة بكل هذا المخزون وقامت بتوظيف الأحداث التاريخية المتلاحقة لتسهم في بناء مركزية أوربية -أمريكية لا ترى إلا نفسها. لم يكن رجال الإصلاح الديني بمنجاة من هذا التمركز، بل كانوا واقعين في شراكه، وساهموا في ترسيخه ممهدين الطريق بذلك لـ" لعلم الحديث" للبحث عن المسوغات لهذا التمركز. ساهم العلم الحداثي في التمكين لهذه المركزية ووجدت طريقها إلى الاستشراق الذي وظف منجزات العلم في ترسيخ الفكرة والتبشير بالإنسان الأوحد والحضارة المتفردة.

إن العمل على تفكيك هذه الصورة يحتاج إلى عمل أكاديمي وإعلامي ممنهج طويل الأمد، فما بني على مدى قرون ليس من اليسير تجاوزه في فترة قصيرة، إن تجاوز هذه الصورة سيؤدي لا محالة إلى تجاوز الأوصاف المرتبطة بالإسلاموفوبيا مثل التطرف والإرهاب الإسلامي وغيرها.

إن هذه المهمة مما لا ينبغي الغفلة عنه خصوصا من قبل الباحثين المتخصصين، وإننا نحسب أن تعميق البحث بشأنها هو مما نحتاج إليه اليوم من أجل إقامة حوار مجد بين الحضارات والثقافات.

ISSN : 2410-1818

**المصادر والمراجع.**

1- أليجي، مصطفى (2021)، *الخوف الافتراضي الذي لا نهاية له في العالم الغربي: الإسلاموفوبيا*. المجلة العلمية لرئاسة الشؤون الدينية التركية ع 3، الصفحات: 366-405

2- برتولومي دي لاس كازاس، *المسيحية والسيف، وثائق إبادة هنود القارة الأمريكية على أيدي المسيحيين الإسبان*. ترجمة : سميرة عزمي الزين، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية.

3- الدمشقي، يوحنا ( 1997) . *الهرطقة المئة*.

4- الراهب السمعاني، مجادلة. 2007.

5- ريتشارد سوذرن، صورة الإسلام في أوربا في القرون الوسطى. ترجمة: رضوان السيد. دار المدار الإسلامي، بيروت: 2006.

6- الزيدي، وليد(2016) *جذور الإسلاموفوبيا في الغرب ومآلاتها المستقبلية، فرنسا أنموذجا*، مجلة دراسات شرق أوسطية، م20، ع77، الصفحات: 15-37.

7- ساردار، ضياء الدين(2012)، *الاستشراق، صورة الشرق في الآداب والمعارف الغربية*. ترجمة فخري صالح، ط1، هيئة أبو ظبي للثقافة والسياحة.

8- الطيب معاش وامحمد عبة(2023)، *الإسلاموفوبيا من الجذور والأسباب إلى المظاهر وأساليب المواجهة*. مجلة رفوف، م11، ع 1، جانفي. الصفحات: 159-189.

9- العطاس، فريد(2021)، تطبيق ابن خلدون، إحياء تقليد مهجور في علم الاجتماع. ترجمة: أسامة عباس، مركز نهوض للدراسات والبحوث، بيروت.

10- ماستناك، توماش(2009)، *السلام الصليبي*. ترجمة: بشير السباعي، المركز القومي للترجمة، القاهرة.

ISSN : 2410-1818

**1-** H.Goddard (2009). *A History of Christian-Muslim Relations*, Edinburgh University Press LTD.

**2-** J, HANNAM ( 2009). *God's Philosophers HOW THE MEDIEVAL WORLD LAID THE FOUNDATIONS OF MODERN SCIENCE*, Elec. Edi. Icon Books

**3-** Jerome, *Saint Jerome's Hebrew Questions on Genesis*, trans. Robert Hayward (Oxford: Clarendon Press, 1995)

**4-** Robert Levine (1997). *The Deeds of God through the Franks*: A Translation of Guibert de Nogent's *`Gesta Dei per Francos,* (Woodbridge: Boydell Press .

**5-** Sénac, phillipe (1983). *l'image de l'autre :histoire de l'occident medieval face a l'islam.*
،(paris :ed Flammarion,

**6-** *The Chanson d'Antioche, an Old-French Account of the First Crusade*, trans. Susan Edgington and Carol Sweetenham (Farnham, England: Ashgate, 2011.

**7-** Tolan, J (2002). *Saracens: Islam in the Medieval European Imagination* Columbia University Press.

**8-** Tolan, J (2019). *Faces of Muhammad: Western Perceptions of the Prophet of Islam from the Middle Ages to Today.* Princeton: Princeton University Press

**9-** Uenal, F., Bergh, R., Sidanius, J., Zick, A., Kimel, S., & Kunst, J. R. (2020). *The Nature of Islamophobia: A Test of a Tripartite View in Five Countries. Personality and Social Psychology Bulletin, 014616722092264.* doi:10.1177/0146167220922643